"إضطراب الفكر الدينى فى أوروبا"

مظاهره .. وبواعثه .. وآثاره

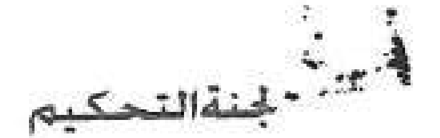
بقلم

دكتـــور

مرسى شعبان على السويدى

مدرس الدعوة والثقافة الإسلامية

بكلية أصول الدين والدعوة - بالمنوفية



لجنة التحكيم

أ.د/ حسن عبدالحميد حسن   أ.د/ محمود عبدالسميع شعلا

بسم الله الرحمن الرحيم

" إضطراب الفكر الدينى فى أوروبا
مظاهره - وبواعثه - وآثاره

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا محمد ﷺ الصادق الوعد الأمين ، وعلى آله وصحبه والتابعين ، ومن سلك منهجهم إلى يوم الدين.

وبعد ..

فإن هذا البحث الذى أقدمه وأسطره لقراء حولية « كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية » يستهدف بالدرجة الأولى بيان البواعث الحقيقية وراء النزعات الأوروبية ، والتيارات الفكرية المتباينة فى العصر الحديث ، حيث انبثقت العديد من المذاهب والتيارات الفكرية المعاصرة نتيجة لسيطرة الفكر الوضعى ومنه الفكر الأوربى على الشبيبة المسلمة ، وعلى السواد الأعظم من عالم المسلمين فى كافة الأقطار الإسلامية نتيجة انحرافهم وبُعدهم عن النور الإلهى الهادى إلى صراط الله المستقيم ، ولعل هذا كان من أهم البواعث لتقديم هذا الموضوع ، عسى أن نهتدى للحق ، ونميز الطيب من الخبيث ، ونفيق من سباتنا ، ونعود إلى رشدنا ، وتراثنا الإسلامى ، لتكون كلمة الله تعالى هى العليا ، وكلمة الذين كفروا هى السفلى ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون والمشركون ومن على شاكلتهم ومنوالهم.

فأقول وبالله التوفيق :

اضطرب الفكر الوضعى - بمختلف مسمياته ، ومزاعمه وادعاءاته ، وتباين فيما بينه وبين غيره من شتى الأفكار الوضعية ومنه الفكر الأوربى « فى علم مقارنة الأديان » ، وفى نظرته لواقع الكون ، وكنه الحياة ، وذاتية الإنسان -

اضطراباً يظهر عجز المفاهيم البشرية عن أن تحيط بما تقنن من قوانين ونظم وما شاكل ذلك مما يسمى « منهاج حياة للإنسانية ».

وتباينت المدارك البشرية فيما بينها تبايناً يجلى عدم التوفيق فى تحديد المصطلحات وإظهار الذاتيات ، ووضوح الأهداف والغايات ، مما أوجد تصارعاً واضطراباً بين شتى الأفكار الوضعية من بيئة لأخرى ، بل وفى البيئة الواحدة ، ومن عصر لآخر ، ولعل الدافع لهذا التباين والاختلاف ناجم من معيار الفكر الإنسانى نفسه ، وضعف المصدر المعرفى لهذه الأفكار المتضاربة والمتصارعة ، ولو قلبت سجلات التاريخ ، وتأملت صفحات الواقع :

* ستجد صراعاً فكرياً فى مجال العقائد والدين والفلسفة.

* وستلمس تضارباً وأخطاءً فى ذاتية التاريخ وعلم الأجناس وكنه الحضارة الإنسانية.

* وسترى تشعباً وأزمة جلية فى اللغة والأدب والفن وغيرها فى العلوم العربية.

* وستقرأ أخطاءً وتبايناً فى مفاهيم الاجتماع والأخلاق والنفس والتربية وسائر العلوم الإنسانية.

* وستلاحظ تيارات فكرية متشعبة ، ومذاهب فكرية متنوعة.

ومنهج البحث العلمى فى هذه الأفكار الوضعية - رغم تنوع وتعدد مسمياتها - مضطرب فى المحاور الستة التالية :

- المحور الأول : ذاتية أو ماهية الفكر - أيا كان مسماه.

- المحور الثانى : ميلاد أو نشأة الفكر وبيان منشئه.

- المحور الثالث : معيار الفكر أو ميزانه أو المصدر الذى يستقى منه هذا الفكر.

- المحور الرابع : خصائص الفكر أو سماته التى تميزه عن غيره من سائر الأفكار.

- المحور الخامس: هدف الفكر أو غايته.

- المحور السادس: حيل أو أساليب الفكر للوصول لبغيته أو غايته.[1]

واختلاف الأفكار الوضعية فيما بينها في إجلاء هذه المحاور الستة رغم ما بينها من صراع يحاول كل فكر منها احتواء الآخر والسيطرة عليه بل محاولة القضاء عليه وسحق أتباعه. يدل دلالة قاطعة على سقوط هذه الأفكار وانهيارها في حلبة الصراع الفكري.

ولكي تتجلى الحقيقة العلمية للقارئ الكريم، أعني بالفكر الوضعي: كل ماهو من نتاج العقل البشري ومقننانه، أياً كان مسمى هذا الفكر، فكل فكر من الأفكار الوضعية يرجع في غالب الأمر إلى واضعه ومقننه، وسمى ما شئت - قد يكون مسمى الفكر رأسماليا، أو شيوعياً، أو ماركسيا، أو وجوديا، أو بوذيا، أو كونفوشيوسيا ... وغيرها من مسميات ومبتدعات فكرية وضعية، وكذا ما يتعلق بزيف التعاليم اليهودية والنصرانية الوضعيتين على اعتبار أن يد البشر قد تدخلت وتلاعبت في نصوصهما الكتابية بالتحريف والتبديل، والتغيير والتعديل، والتقديم والتأخير، والزيادة والنقصان، والحذف والتلفيق، الأمر الذي جعلهما يدخلان في نطاق وعداد الفكر الوضعي لأنهما انحرافا وحادا عن وحي الله تعالى.

وعندما تظهر الغشاوة في عيون المفكرين، ويذهبون بعيداً عن مصدر النور الحق، والوحي الإلهي، سرعان ما تختلط الأمور، وتضطرب عليهم الحقائق المتعارف عليها، وإذا ما أغرق الإنسان بنفسه في ساحة الفكر الوضعي وبعد عن النور ومصدره، فإنه لاريب سيفقد التمييز بين الحق والباطل، والطيب الخبيث،

١- لمعرفة هذه المحاور الستة انظر (ذاتية الفكر الإسلامي وغايته) بحث مخطوط، د. مرسى السويدى، لم يأذن الله تعالى بنشره.

وتتشابه فى عينيه الألوان لأنه يعيش فى ظل فكر باطل ، وليل دامس ، وظلام حالك ، « وظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور »[1] ، وصدق من قال : « إن الألوان تتشابه فى الظلام» ، واختلاف الفكر الوضعى فى الرأى ، وليد بُعده عن المصدر الإلهى وانحرافه عن المعيار الأساسى لموازين الفكر ، كما يُعد صاحب الألوان المتعددة عن النور فرآها كلها فى الظلام لوناً واحداً.

ولا ريب فى أن ظهور الضباب الكثيف ، والمختلط مع غيره ، يؤدى إلى اضطراب السبل ، وتعدد الحيل ، ويُوجد بلبلة وصراعاً ، ثم انحرافاً عن سواء السبيل فى الإدراك والفهم والسلوك ، ورغم ما بين الأفكار الوضعية جميعها من صراع فكرى حاد أحياناً ، وصراع دموى فى أكثر الأحايين ، إلا أنها اتفقت وأجمعت ، واتحدت وتألفت على توجيه الضربات القاسمة للإسلام رغبة فى القضاء عليه أو تحريفه وتشويهه أو إثارة الشبهات حوله.

ولما كان الفكر الأوربى جزءاً لا يتجزأ من الفكر الوضعى ، فإننى آثرت أن أقدم هذا الموضوع - اضطراب الفكر الدينى فى أوروبا ، مظاهره ، وبواعثه وآثاره - لمن انخدعوا ببريق الحضارة الغربية ، وانساقوا انسياقاً أعمى لما تمليه عليهم النهضة الأوروبية ، لكى يظهر لهم - من خلال البحث - أن العمد والأسس التى قام عليها الفكر الدينى فى الساحة الأوروبية واهى وباطل ، ولا يقوم على ساق ، وما بنى على باطل فهو باطل ، فضلا عن أن هذا الفكر سراب خادع ومخادع ، ويمثل البيئة التى ولد فيها ، وإطلاق نتائج هذه التجربة على كل الأمم والأديان وخاصة البيئة الإسلامية ، والدين الإسلامى فيه تجاوز كبير للحقيقة العلمية.[2]

١- سورة النور من الآية (٤٠) .

٢- انظر (من معطيات الثقافة الإسلامية ودورها فى نهضة أوروبا وحضارتها) ، د. مرسى شعبان السويدى، حولية أصول الدين والدعوة بالمنوفية، العدد الخامس عشر، ص ٣٣٥-٣٧٠ ، ١٩٩٥م.

وبيان هذا الموضوع يتجلى من خلال تفصيل العناصر التالية بعد إجمالها :

أولا: طبيعة المجتمع الأوروبى.

ثانيا: ملابسات أو مظاهر اضطراب الفكر الدينى فى الساحة الأوروبية.

ثالثا: أهم البواعث التى أدت إلى اضطراب الفكر الدينى فى البيئة الغربية.

رابعا: بيان الآثار التى ترتبت على هذا التخبط الفكرى فى العالم الأوروبى.

ولى مع كل عنصر من هذه العناصر وقفه لتوضيحه - حسب ما يسمح به المقال - فأقول وبالله التوفيق ،،

ولا: طبيعة المجتمع الأوروبى:

لا يحق للمجتمع الأوروبى - ومن نهج منوالهم من أبناء الشرق العربى - أن يتغنى بحضارته ، أو يزهو بنهضته ، وهى وليدة أفكار وثنية وضعية ، ولمعرفة ذلك وجب علينا أن نعرف طبيعة الحضارة الغربية ، والنهضة الإسلامية ، وضعها وروحها ، وفلسفة حياة هذه الأمم ، وكيف نشأت ؟ ، ولبيان هذه الطبيعة الأوروبية.

يقول أبو الحسن الندوى : « ليست الحضارة الغربية فى القرن العشرين المسيحى وليدة هذه القرون المتأخرة التى تلت القرون المظلمة فى أوروبا ، أو حديثة كما يتوهم كثير من الناس ، بل يرجع تاريخها إلى آلاف من السنين ، فهى سليلة الحضارة اليونانية ، والحضارة الرومانية ، فقد خلفتهما فى تراثهما السياسى والعقلى والمدنى والدينى والاجتماعى والعلمى ، وانطبعت فيها ميولهما ونزعاتهما وخصائصهما ، بل انحدرت إليها فى الدم ، فقد كانت الحضارة اليونانية أول مظهر رائع - حفظه لنا التاريخ - للعقلية الأوروبية ، وأول حضارة - سجلها التاريخ - قامت على أساس الفلسفة الأوروبية تجلت فيها النفسية الأوروبية ، وعلى أنقاضها قام صرح الحضارة الرومانية تحمل روحا واحدة هى الروح الأوروبية ، وظلت الشعوب الأوروبية طيلة قرون محتفظة بخصائصها وطبيعتها ، وارثة لفلسفتها وعلومها وآدابها وأفكارها ، حتى برزت بها فى القرن التاسع عشر فى ثوب براق يوهمك - بطلاته وزهو ألوانه - أنه جديد النسج، ولكن لحمته وسداه من نسج اليونان والرومان » (١).

ولما كنا بصدد البحث والدراسة فى انتقاد الحضارة الغربية ، والنهضة الأوروبية ، وما شكلها من روح وطبع وفكر ، وما واكبها من اضطراب فكرى عام، وخاصة فيما يتعلق بالفكر الدينى بصفة خاصة - موضوع البحث - فلكى نكون

١- (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

متصفين فى الحكم على هذه العقلية الأوروبية ، فإنه يتسنى لنا أن نلقى بعض الضوء على ما اعترى الحضارتين اليونانية والرومانية من فكر ، لكن نتأكد من مدى تأثر العقلية الأوروبية ، بطابعهما وروحهما.

- **أما الحضارة اليونانية (الإغريقية)** فقد غلب عليها الطابع المادى فى كافة مناحى حياتها الفكرية والعلمية ، ويتجلى هذا الطابع واضحاً فيما اعتقدوه مهم (لا يؤمنون إلا بالمحسوس وقلة التقدير لما لا يقع تحت الحس ، وقلة الدين والخشوع ، وشدة الاعتداد بالحياة الدنيا والاهتمام الزائد بمنافعها ولذائذها ، والنزعة الوطنية) [1] ، وهذا الاعتقاد ينم فى مجمله كل ما يتصل بالأيديولوجية اليونانية وما سادها من علم وثقافة وفلسفة ودين.

وقد سلم العلماء الأوروبيون بغلبة المادية فى الحضارة الأوروبية ، ونوهوا بها فى كتبهم وبحوثهم العلمية ، ألقى العالم الألمانى الدكتور « هاس » ثلاث محاضرات فى جنيف عنوانها « ماهى المدنية الأوروبية ؟ » ، وملخص ما قاله : «المدنية اليونانية هى مركز المدنية الغربية الحاضرة ، وكان المهم عند رجالها نشوء قوى الإنسان نشوءاً متناسباً ، وكان المثل الكامل عندهم الجسم الجميل المتناسب وليس هذا إلا اعتدادا بالمحسوسات اعتداداً كبيرا ... وكان الدين خلواً من الروحانية المعنوية ، لم يكن فيه علم الدين ولا طبقة رجال الدين ، أما اللون الروحى الذى يبدو فى تقاليد « إرمنس » وغيرها من التقاليد التى نسجوا حولها نسائج من أساطير وخرافات ، وصور للمعانى المجردة وتصورها فى أجسام وأشكال إلا رشحة من رشحات هذه المادية الطاغية فى الأمة اليونانية - وغيرها »[2].

١- المرجع السابق ص ١٧٦ - ١٨٠ بتصرف ، ارجع إليه لمزيد من الاستفادة.

٢- نقلا من المرجع السابق ص ١٧٧ .

كما عنى العديد من مفكرى الغرب وعلماء أوروبا برقة الدين وقلة الخشوع والجد فى أعمال اليونان وكثرة اللهو والرقص والطرب فى حياتهم ، وسجلوها فى كتبهم ، ومن هؤلاء « ليكى » فقد قال فى كتابه : (إن الحركة اليونانية كانت عقلية وذهنية محضة ، وكانوا يعظمون آلهتهم بالرقص والغناء ، ولاريب أن التاريخ اليونانى يصدق ذلك ويؤيده ، فلا نعلم دينا من الأديان يزاحم دين اليونان وتقاليده فى كثرة الأفراح والأعياد والألعاب وفى قلة الخشية والخضوع ، فلم يكن اليونان يعظمون إلههم إلا كما يعظمون شيوخهم وعظماءهم ، وكانوا يكتفون فى تعظيمه وتمجيده برسوم عارية وتقاليد جارية)[1].

ومن ثم يظهر بجلاء أن طبيعة الحياة اليونانية وروحها فى الاعتقاد قد غلب عليها الطابع المادى الجارف ، فلم يكن اليونانيون خاشعين لله تعالى بل كانت عباداتهم وأعمالهم الدينية أجساداً بغير أرواح ، وأنهم كانوا يعظمون الله كما كانوا يعظمون شيوخهم وكبارهم ، واهتموا بالحياة الدنيا وبالغوا فى قيمتها وزخرفها ، وولعوا بالفنون الجميلة ، ولهج أدباؤهم ومفكروهم بالحرية الشخصية التى لا تعرف قيدا ولا تقف عند حد تأثيرا سيئا فى أخلاق اليونان ومجتمعها ، فأدى إلى انتشار الفوضى الأخلاقية ، وحدثت ثورة على كل نظام ، وأصبح شعار الرجل الجمهورى (وهو كناية عن الرجل الحر والمتنور) الجرئ وراء الشهوات العاجلة ، وانتهاب المسرات والتهام الحياة التهام الجائع النهم.

- وأما عن مدى تأثير العقلية الأوربية بروح الحضارة الرومانية (الرومية) وطابعها فإنه يتسنى لنا بيان الإحاطة بطابع هذه الحضارة وروحها ، وعنهما يحدثنا أبو الحسن الندوى قائلا :

« لقد تأثرت الحضارة الرومانية والإغريقية ، وغلب طابع وروح اليونان على الرومان ولم يكن هذا الخضوع خاصا فى عالم التأليف والأدب فحسب، بل غلبت

١- (تاريخ أخلاق أوروبا) ، ٣٤٤ ، ٣٤٥.

المدنية الإغريقية المدنية الرومية فى الأخلاق والسجايا والعشرة والاجتماع والعواطف والنزعات ، وفى كل ناحية من نواحى الحياة العامة ، وأصبح الروم يقلدون الإغريق ، وهكذا انتقلت الفلسفة اليونانية ، والثقافة بل النفسية اليونانية - بطابعها وروحها وخصائصها - إلى الروم ، وجرت منهم الروح والدم، ولم يكن الروم - بطبيعتهم الأوروبية - يختلفون عن اليونان فى الخصائص كثيرا ، بل هناك شبه عظيم بين الأمتين ، إيمان بالمحسوس ، وغلو فى تقدير الحياة - الدنيا- ، وشك فى دين ، وضعف فى يقين ، واضطراب فى العقيدة ، واستخفاف بالنظام الدينى وطقوسه ، واعتزاز بالقومية وتعصب لها ، وحب مفرط للوطن ، زد على ذلك كله اعتداداً بالقوة ، واحتراماً زائداً لها يبلغ حد العبادة والتقديس » (١).

ومن يقرأ التاريخ الفكرى والسياسى للحضارة الرومية وخاصة فيما يتعلق بالحياة العقائدية سيظهر له بجلاء أن الفكر الدينى الغالب على هذه الحضارة فكراً وثنياً خرافيا يقتضى بطبيعته الحيرة والاضطراب وضعف الإيمان ، وكلما تقدموا وبهروا فى حياتهم العلمية ، وتنورت أفكارهم ازدادوا تهكماً به ، واستخفافاً منه ، وقضوا أن الآلهة لا دخل لهم فى السياسة وأمور الدنيا. (٢)

وفى هذا الصدد يحدثنا « سيسرو » قائلا : « لما كان الممثلون ينشدون فى دور التمثيل أبياتا معناها أن الآلهة لا دخل لهم فى أمور الدنيا يصغى إليها الناس ويسمعونها بكل رغبة » (٣).

١- (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) ص ١٨١.

٢- أليس هذا المبدأ هو شعار « العلمانية » الحديثة « لا سياسة فى الدين ، ولا دين فى السياسة» وقد رد علماؤنا الأجلاء على هذه النزعة الفكرية ودحضوها أمثال د. محمد عمارة ، د. يوسف القرضاوى ، و د. يحيى هاشم فرغل وغيرهم.

٣- (تاريخ أخلاق أوروبا) ص ١٧٨.

ويقول الراهب « أغسطين » : « إن الروم الوثنيين كانوا يعبدون آلهتهم في المعابد ويهزأون بهم في دور التمثيل » [1] ، وقد فقد الدين الروماني سلطانه الروحي على معتنقيه ، وبردت العاطفة الدينية في قلوب الناس حتى تجرأ الرومانيون على آلهتهم وأهانوها في بعض الأحيان ، كما لم يكن للدين تأثير في أخلاق الأمة الرومانية وسياستها ومجتمعها ، ولم يكن يملك عليهم شعورهم وميولهم ، ويراقب أخلاقهم ونزعاتهم ، ولم يكن ديناً عميقاً يحكم على الروح وينبعث من أعماق القلب بل كان تقليدا من التقاليد ، كانت السياسة تقتضى البقاء عليه ولو بالاسم والرسم.

وفي هذا الشأن يسجل العالم « ليكى » قائلا :

« إن الدين الرومى كان يعتمد أساساً على الأثرة ، ولم يكن يرمى إلا إلى رفاهة الأفراد وسلامتهم من المصائب والمتاعب ، والشاهد على ذلك أنه ظهر في رومية مئات من الأبطال والعظماء ولكن لم ينهض فيها زاهدا في الدنيا عزوف عن ملذات الحياة، ولا نسمع مثالا في تاريخ الروم للتضحية والإيثار إلا وتجده لا تأثير فيه للدين ولكنه مبنى على الوطنية » [2].

كما غلب على الحضارة الرومية دينا جديدا تدين به ، وشعارا تعرف به هو الروح الاستعمارية ، وذلك ما ورثته أوروبا المعاصرة عن أسلافها الروميين وخلفتهم فيه.

وفي هذا الشأن يسجل العالم الألماني المسلم « محمد أسد » في كتابه النفيس قائلا : « إن الفكرة التي كانت تسيطر على الإمبراطورية الرومانية هي احتكار القوة لها ، واستغلال الأمم الأخرى لمصلحة الوطن الرومى فقط ، لم يكن

١- المرجع السابق ، ص ١٧٩.

٢- المرجع السابق ، ص ١٧٧.

رجالها والقائمون عليها يتحاشون من أى ظلم وقسوة فى سبيل حصول خفض العيش لطبقة ممتازة ، أما ما اشتهر من عدل الروم فلم يكن إلا للرومى فقط ، إن هذه السيرة لا يمكن أن تقوم إلا على إدراك مادى محض للحياة والحضارة ، وإن كانت ماديتهم قد هذبت بذوق عقلى ولكنها بعيدة عن جميع القيم الروحية ، إن الروم لم يدينوا بالدين جديا أبدا ، كانت آلهتهم التقليدية محاكاة شاحبة لأساطير الإغريق وخرافاتهم ، وقد آمنوا بهذه الأرواح محافظة على الرابطة الاجتماعية التى كانت تربطهم وتوحدهم ، فلم يكونوا يسمحون لآلهتهم بالتدخل فى حياتهم العملية. (١)

وفى نهاية دور الحضارة الرومية سال بحياة شعبها سيل الانحطاط الخلقى البهيمى ، وخاصة بحر الترف في العيش والبذخ فيضانا عظيما ، غاص الروم فيه إلى الأذقان ، وسالت فيه النظم الأخلاقية التى كان الروم معروفين فيها كالغناء واللهو والرقص مما أدى إلى تزعزع البناء الاجتماعى فى البيئة الرومية حتى كاد ينهدم ، وقد صوره العالم الأمريكى « درابر » مبينا تدهور الحياة الاجتماعية فى الحياة الأوربية قائلا :

« لما بلغت الدولة الرومية فى القوى الحربية والنفوذ السياسى أوجها ، ووصلت فى الحضارة إلى أقصى الدرجات هبطت فى فساد الأخلاق وفى الانحطاط فى الدين والتهذيب إلى أسفل الدركات ، بطر الرومان معيشتهم وأخلدوا إلى الأرض واستهتروا استهتاراً ، وكان مبدؤهم أن الحياة إنما هى فرصة للتمتع ، ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترف ومن لهو إلى لذة ، ولم يكن زهدهم وصومهم فى بعض الأحيان إلا ليبعث على شهوة الطعام ، ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة ، كان موائدهم تزهو بأوانى الذهب والفضة مرصعة بالجواهر ، ويحتف بهم خدام فى ملابس جميلة خلابة ، وغادات رومية

١- (الإسلام على مفترق الطرق) ص ٣٨ ، ٣٩.

حسان ، وغوان عاريات كاسيات غير متعففات تدل دلالا ، ويزيد فى نعيمهم حمامات باذخة ، وميادين للهو واسعة ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ، وقد أدرك الأبطال الفاتحون الذين دوخوا العالم أنه إن كان هناك شئ يستحق العبادة فهو القوة ، ... فكان نظام رومة المدنى يشف عن أبهة الملك، ولكنه كان طلاء خداعا كالذى تراه فى حضارة اليونان فى عهد انحطاطها)[1].

وها هنا كما يقول أبو الحسن الندوى حادثة جديرة بأن يسجلها التاريخ وينوه بها المؤرخون وهى إعتلاء النصرانية عرش رومة الوثنية وكان ذلك بجلوس قسطنطين الذى اعتنق النصرانية على عرش الأباطرة ٣٠٦م فانتصرت فيه النصرانية على الوثنية ، ونالت فجأة مالم تكن تحلم به من ملك عريض ، ودولة مترامية الأطراف ، وكلمة لا تعلوها كلمة. ولما كان قسطنطين قد توصل إلى ملكه على جسر من أشلاء النصارى وأنهار من دمائهم التى أريقت فى الذب عنه والنصر له ، عرف لهم الجميل وبذل لهم وجهه ، ووطأ لهم أكنافه وقلدهم مفاتيح ملكه ، ولكن انتصار النصارى فى ساحة القتال أدى إلى هزيمتهم فى معترك الأديان ، وربحوا ملكاً عظيماً وخسروا ديناً - إلهياً - جليلا لأن الوثنية اليونانية والرومانية قد مسختا دين المسيح وأتباعه ، وكان أكثر مسخا له وتحريفا به هو قسطنطين حامى زمام النصرانية الوضعية ، ورافع لوائها ، فلم تستطع النصرانية الوضعية - بعد ما بلغت من القوة وتولية قسطنطين مقاليد الأمور وزمام الملك - أن تقتلع وتقطع دابر الوثنية وجرثومتها ، وكانت النتيجة أن اختلطت مبادئها ، ونشأ من ذلك دين جديد تتجلى فيه الوثنية والنصرانية سواء بسواء ، وأن هذا الامبراطور - الذى كان عبداً للدنيا - لم تكن عقائده الدينية تساوى شيئا ، رأى لمصلحته الشخصية ، ولمصلحة الحزبين المتنافسين

١- (الدين والعلم) للعالم الأمريكى درابر ص ٣١ ، نقلا من (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين).

-النصراني والوثني - أن يوحدهما ، ويؤلف بينهما ، ولم تستطع النصرانية الملقحة بالوثنية المشوهة - التي فقدت روحها وجمالها - أن تغير من سيرة الروم المنحطة ، وأن تبعث فيهم حياة دينية نقية طاهرة وابتدعت رهبانية كانت شرا على المدنية الأوروبية - بصفة خاصة - وعلى الإنسانية بصفة عامة . (١)

وهذا ما يدفعنا إلى بيان العنصر التالي الذي يبرز أهم الملابسات والمظاهر التي أدت إلى اضطراب الفكر الديني في الساحة الأوروبية - وإن كان ما سبق من موروثات فكرية سادت الحضارتين الإغريقية والرومية قد شكلت العقلية الأوروبية حضارياً ، وفكرياً ، ودينياً ، وعلمياً ، وعملياً يعتبر من أهم هذه المظاهر ، ويعد من الركائز الرئيسة التي أدت إلى الصراع الفكري الديني والاضطراب العام في الحياة الفكرية التي غلبت على الطابع والروح الأوروبية.

١- (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) ص ١٨٤ - ١٨٦ بتصرف يسير.

ثانيا: أهم الملابسات والمظاهر التى أدت إلى اضطراب الفكر الدينى فى أوربا:

إن الفكر الأوروبى عاش فى ظل قرون همجية مظلمة ، ووسط بيئة مضطربة، لم تتضح فيها معالم الدين الحق ، كما ولد فى ساحة كانت مرتعاً خصباً لشتى الأفكار الوضعية المتنافرة ، ورغم بزوغ فجر الإسلام ، وظهور الدعوة الإسلامية إلا أنه لم يستقبل شعاع هذا النور الإلهى بالحيدة والنزاهة والإذعان بل استقبله على أنه فضلات أديان من العصور السحيقة ، ومن ثم بدى اضطراب الفكر الدينى فى الساحة الأوروبية جلياً فى واقع الكون ، وواقع الحياة، وواقع الإنسان نفسه ، وتجلت أفكاره محيرة ومضطربة في كافة نظمه وتقنيناته التى وضعها منهجاً لحياته وواقعه ، واضطربت مفاهيمه ، واختلفت معاييره وموازينه ، وتباينت أهدافه وغاياته ، وتعددت حيله وأساليبه فى الوصول لبغيته وما يصبوا إليه ، وأنى لفكر وضعى أن يعرف ربه وقد جهل كنه نفسه ؟!.

لقد بدا اضطراب الفكر الدينى فى أوروبا فى تحديد ظاهرة التدين وذاتيته، وكانت « ظاهرة التدين فى سلوك الإنسان - الأوربى - ظاهرة محيرة لكتاب الغرب الذين اهتموا بالدراسات الدينية.

- فهذا (ماكس نوردوه) يرى : أن الشعور الدينى إحساس أصيل يجده الإنسان غير المتمدين كما يجده أعلى الناس تفكيراً ، وأعظمهم حدساً .... ويرى -أيضا - : أن الديانات ستبقى ما بقيت الإنسانية ، وأنها ستتجاوب مع درجة الثقافة العقلية التى تبلغها الجماعة.

- نرى اتجاها آخر يمثله فيلسوف فرنسى « فولتير » يفسر ظاهرة التدين بأنها : اختراع دهاة ماكرين من القساوسة والكهنة الذين وجدوا لفيفا من الحمقى والسخفاء يصدقونهم ويذعنون لخرافاتهم ».

- كما يمثله - أيضا - « جان جاك روسو » الذى يرى : أن ظاهرة التدين فى المجتمع نتيجة جشع الذين سبقوا فوضعوا أيديهم على مساحات الأرض الواسعة ثم خدعوا الجمهور بما افتعلوه من قانون أو نظام دين.

- هذا الاتجاه الأخير ماهو إلا امتداد للسفسطة اليونانية والرومانية والمصرية القديمة التى روجها السفسطائيون بفلسفتهم القائمة على التشكيك والمغالطات التى زينت فكرة : أن القوانين والديانات فى تصويرهم ماهى إلا ضرورة سياسية ماهرة تهدف إلى علاج أمراض المجتمع » [1].

ولم ينته القرن الثامن عشر حتى كان اتجاه « ماكس نوردوه » هو التصحيح للفكرة الخاطئة للسفسطائية القديمة ، واكتشفت حقائق دينية فى خارج المجتمعات الأوروبية تبين من مقارنتها أن التدين فكرة مشاعة لم تخل عنها أمة من الأمم فى القديم والحديث رغم تفاوت المجتمعات فى مدارج التمدن والرقى ودركات الهمجية والجاهلية.

- يقول « بارتلمى سانت هيلبير » : هذا اللغز العظيم الذى يستحث عقولنا ، ما العالم ؟ ما الإنسان ؟ ، من أين جاءا ؟ ، من صنعهما ؟ ، من يديرهما ؟ ، كيف بدءا ، كيف ينتهيان ؟ ، ما الحياة ؟ ، ما الموت ؟ .... الخ ، هذه الأسئلة لا توجد أمة ولا شعب ولا مجتمع إلا وضع لها حلولا جيدة أو رديئة ، مقبولة أو سخيفة ، ثابتة أو متحولة .

- ويقول « شاشا وان » مهما يكن تقدمنا العجيب فى العصر الحاضر .. فإن عقلنا فى أوقات الهدوء والراحة والسكون - عظماء كنا أو متواضعين ، خيارا كنا أو أشرارا ، يعود إلى التأمل فى المسائل الأزلية.

- ويقول « هنرى برجسون » : لقد وجدت جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ولكنه لم توجد قط جماعة بغير دين .

١- نقلا من (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء) د. رؤوف شلبى ، ص ٤.

كما صارت هذه النزعة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية ، وأقربها إلى الحياة الحيوانية ، وأن الاهتمام بالمعنى الإلهى وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية » [١].

- ويقول « أرنست دينان » : « يمكن أن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة ولكن يستحيل أن ينمحى التدين بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى » [٢].

- ويقول « بلونارك » : « الدين أهم ضرورات الإنسان ، وأنه من الممكن أن تجد مدنا بلا أسوار وبلا ملوك وبلا ثروة وبلا آداب ، ولكن لم ير إنسان قط مدينة بلا معبد أو لا تمارس الصلاة » [٣].

*** حيرة علماء الغرب فى تفسير مظاهر التدين وعلله :**

وكما اضطرب كتاب الغرب فى ظاهرة التدين ، فقد حيرهم كذلك مظهر هذا التدين ، واشتطوا فى تفسير ظاهرة التدين بالسبب الدافع لها ، والباعث عليها.

فقد علل بعضهم ظاهرة التدين فى **عبادة الطبيعة** بأن الانسان الأول لم يكن يفهم دنياه التى يعيش فيها ، لقد كان الكثير من عالم الأرض والكون محجوبا عنه لا يقدر على تصور وجوده فاستشعر الخوف من الطبيعة ، ولما لم يستطع أن يعلل كثيرا من ظاهراتها المحيطة به اعتبرها ذات حياة مثله ، ثم شعر بأنها أشد منه قوة فكان طبيعيا أن يسترضيها حتى يحصل على المعونة منها أو تمنع أذاها عنه.

ومن ثم أخذ الإنسان الأول فى عبادة الطبيعة ومظاهرها ، ثم تنوع مظهر

١- المرجع السابق ص ٥.

٢- المرجع السابق ص ٦.

٣- نقلا من (أخطاء المنهج الغربى الوافد) للأستاذ أنور الجندى ص ٥٠.

المعبود من عالم الطبيعة ، فتارة تكون الشمس إذا كانت حياة الإنسان فى بلاد تستحب فيها أشعة الشمس ، وتارة يكون المعبود مسقط ماء أو بر كان إذا كان أحدهما ذا تأثير خاص فى حياة الناس الذين يعيشون فى محيطه ، وتارة يكون المعبود بقرة أو جاموسة أو حيوانا آخر إذا كان الحيوان بما يعول عليه فى بقاء حياة الإنسان .

وعلل البعض الآخر ظاهرة التدين فى عبادة الروح والأسلاف نتيجة عدم إدراك الإنسان الأول لمعنى الموت والحياة وظنهم أن الذى يموت سوف تعود روحه ، ولعل الرؤى والأحلام قد سيطرت على بعض الناس كتفسير لظاهرة التناسخ فعبدوا الأرواح لشيوع ظاهرة اعتقاد حياة الروح بعد فناء الجسد ، وعلى أساس هذه النظرية نشأت عبادة الأسلاف إذ أنها مؤسسة على الشعور بأن روح السلف تحوم حول الناس ، وتبعا لهذا نشأت فكرة انتقال الأرواح : دخول روح جسد ميت فى جسد من الأجساد المعبودة .

وعلل آخرون ظاهرة التدين فى عبادة النصب وفسروها بأنها خليط من عبادة الطبيعة وعبادة الأرواح ، غير أنها عبادة متوجهة إلى التشبيه بالإله أو بما يعتبر معبودا ، وقد يحمل هذا الشئ الشبيه من مكان إلى مكان على أنه طلسم، وكثيرا ما يسمى صنما ، وما الأصنام إلا نصبا « فتشية » (١).

وعلل قوم ظاهرة التدين فى عبادة كائن أعلى وعنهم كتب « جروف » قائلا: إن عبادة كائن أعلى مهيمن على كل شئ أمر متأخر الحدوث عادة ولكنها وجدت فى بعض الأحيان بين الناس الأولين ، وكانت فى مبدئها تتناول عبادة آلهة شتى ثم تحولت بالتدريج إلى التوحيد باستبعاد الآلهة الصغرى الأقل خطرا ،

١- الفيتشية : اعتقاد أن لكل مادة روح تحل بها وأن الاستحواذ على تلك المادة يمكن الإنسان من استخدام روحها والانتفاع بها ، نقلا من (يا أهل الكتاب تعالوا ..) ص ٩ هامش.

وظل هذا الاعتقاد يرقى وينفى شيئا فشيئا حتى كان أرقى أشكال الدين اليوم[1].

فى كتابه (العقلية البدائية) فهم يرون : أن البدائيين يهملون البحث عن الأسباب والعلل للظواهر الطبيعية ، ويرون أن القوى الغيبية هى التى تفعل كما يشاهدونه من بركان ورعد وبرق .. واضطراب المبشرون فى تفسير هذا المنطق للعقلية البدائية فبعضهم يرده إلى البلادة والغباء ، والبعض الآخر ينفى هذه البلادة ويرجعه إلى تحكم العادات والتقاليد السائدة فى مجتمعاتهم .[2]

*** اضطراب الفكر الدينى لدى العقلية الأوربية فى بيان مفهوم الدين:**

وقد نشأ هذا الاضطراب نتيجة الثقافة الدينية الموروثة عن الأمم السالفة : كالحضارة اليونانية والرومانية ، ولم تكن العقيدة فى هذه البيئات ذات وضوح سواء كان فيما يتعلق بالاعتقاد أو الشرح أو السلوك العام لأجناسهم ، كما كان مبعث هذه الاضطراب نتيجة المظاهر والملابسات التى سنبرزها من خلال عرضنا لهذا العنصر.

ومن هذه المباعث التى كان لها أثرا (محاكم التفتيش) والسلطة التى فرضتها الكنيسة على أتباعها بالحجر على الفكر أن يتجسس على المعرفة ليبحث ، وتولدت عن هذه السلطة رهبة نفسية صارت بحكم التقادم عادة دينية فلم يعد من السهل أن يعالج الأوربى مسألة فى الدين.

يقول « جروف » : « من الصعب أن يعالج الإنسان[3] موضوع الدين بطريقة علمية وذلك لما للدين من الحرمة والقداسة عند الناس فلا يكاد الكاتب

١- انظر (المجتمع ومشاكله) للكاتب جروف نقلا من المرجع المذكور ص ٦ -٨ .

٢- نقلا من (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء) د. رؤوف شلبى ٣٢-٤٩ لمزيد من الاستفادة.

٣- يقصد الإنسان الأوروبى ، لأنه منهم ويكتب عن بيئتهم.

يحاول ذلك حتى يوصم بأنه ملحد أو هرطيق [١] ، مهما كان الباعث له على البحث ساميا خالصا .... والظاهر أن الدين من الأمور التى يقرها الإنسان من جهته إقرارا نهائيا فهو لا يطيق أن يدلى أحد من الناس برأى يخالف رأيه أو يعرض أى شرح أو تفسير يباين ما عرفه وألفه ويكاد أن يكون لكل فرد تفسيره الخاص ... وهناك اختلاف كثير فى الرأى حتى من حيث ما يجب أن يدرج تحت اسم الدين ، ومن ثم كان عندنا عدد من التعريفات لا حصر لها ، بل الواقع إنه يكاد يكون لكل كاتب عن الدين تعريف وتصور فى الموضوع يختلفان عما لسواه.[٢]

ومما يعضد ويؤكد اضطراب العقلية الأوربية فى تحديدها لذاتية الدين ومفهومه ، ما استعرضه فضيلة المرحوم الدكتور محمد عبدالله دراز لتعريفاتهم لمفهوم الدين فى كتابه القيم [٣] ، فذكر أربعة عشر تعريفا لمشاهير كتاب الغرب ثم فندها ودحضها ، ثم علق قائلا : إن تعاريف علماء أوربا للدين بدت فى ثوب مهلل لأنها لم تلاحظ سوى الجانب السلبى ، وتجريد الدين من عنصره الروحى ، وأبعدوا الدين عن أخص صفاته وهو الألوهية والتدبير ، لقد تأثر الفكر الأوربى بمواريثه القديمة فأضفى على الدين حلة (الإتكيت) أو (البروتوكول) ليصير عادة اجتماعية مثل باقة الورد التى توضع على قبور الموتى أو لبس الثوب

١- الهرطقة : كلمة يونانية الأصل معناها (الرأى المستقل) أو (الاجتهاد الفردى) وقد استخدمتها الكنيسة بمعنى المذهب الخارج على المسيحية ، انظر (الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية) اسحق عبيد ص ٣٤ ، دار المعارف ١٩٧٢م.

وانظر (رؤية فى سقوط الامبراطورية الرومانية) د. محمود محمد الحويرى ، هامش ٧٥ دار المعارف ١٩٨١م.

٢- (يا أهل الكتاب تعالوا ..) ص ، ٢٢ - ٢٤ بتصرف.

٣- (الدين) ص ٣٤ - ٥٤ ، ارجع إليه لمزيد من الاستفادة.

الأسود حدادا على عزيز رجل أو وضع الخاتم فى الأصبع للتمييز بين الأعزب والمتزوج وتظهر هذه الفكرة واضحة فى كلام « جروف » إذ يقول :

(لقد تقدم الدين والمدنية فى سبيل الرقى جنبا إلى جنب ، فالدين من هذه الوجهة يشابه غيره من الأوضاع الاجتماعية) ويقول أيضا : (الدين كغيره من الأوضاع الاجتماعية الأخرى ويدل على طور الرقى) (١).

*** اضطراب العقلية الأوربية فى نشأة الدين وتطوره:**

يحدثنا د. رؤف شلبى شارحا هذا الاضطراب فيقول :

أثرت الحياة الموروثة للمجتمعات الوثنية القديمة فى أوربا على العقلية الأوربية فأفسدت تفكيرها الدينى ، وقد أضفى ذلك الاضطراب نوعا آخر من الاضطرابات الفكرية حول تحديد نظرية منشأ الدين وتطوره ، وقد ورث الفكر الأوربى علم مقارنة الأديان عدة نظريات تفسر منشأ الدين وتطوره.

الأولى: أن مصدر الدين إنسانى على خلاف كبير فى الطرق التى يسلكها أصحاب هذه النظرية فى إثبات ذلك ، وهذه النظرية مع أصحابها ينكرون حقيقة الألوهية ، وسادت هذه النظرية أوروبا فى القرن التاسع عشر الميلادى تأثرا بمذهب التطور التقدمى الذى حاول تطبيقه على مقارنة الأديان كل من « سبنسر » و «تيلور» و « فريزر » و « دركايم » .

الثانية : أن مصدر الدين هو التجارب النفسية، ومن القائلين بهذه النظرية:

أ- أوجست ساباتير القائل : أن العقيدة تتولد فى الإنسان منذ نشأته على أثر شعوره بمناقضة جوهرية بين حساسيته وإرادته.

ب- هنرى برجسون القائل : أن العقيدة تقوم على عوامل نفسية تثيرها حياة الإنسان اليومية خاصة ما يتعلق بالقوانين الأدبية التى يفرضها

١- (المجتمع ومشاكله) نقلا من (يا أهل الكتاب تعالوا ...) ص ٣٦.

المجتمع ، وما يتعلق بأحداث المستقبل التى لا يمكن التنبؤ بها بصفة جازمة.

الثالثة : ترى أن الله هو مصدر الدين سواء كان ذلك بطريق مباشر أو غير مباشر، وقد تحمس لهذه النظرية (لانج وشريدر وبركلمان) وتبعا لهذا اختلف علماء مقارنة الأديان فى نظرية التطور الدينى ، كيف بدأ [١]. القائلون : بالفطرة ، والقائلون : بالتطور ، لا يسعهم الحديث عن دين منطقة بدائية ، فقد أعلن العلماء أنهم يجهلون تاريخها تماما فإذاما تدخل أحدهم فى تفسيرات لهذه الديانات فقد ناقض نفسه وأفنى بحثه فى عبث محكوم عليه مسبقا أنه غير علمى. [٢]

ومن ثم بدت العقلية الأوربية المشتغلة بمقارنة الأديان بأنها مضطربة « لأنها ورثت ديانات وثنية لا غناء فيها للروح والفكر ، ولأنها تعصبت لمنهجية عقلها فأغلقت دائرة الفروض فزلت ، ولأنها غير حيادية فى منهج البحث فأفسدت عناصر القياس فخلطت بين الدين والصناعة والوحى والفن والممنوع والمقبول »[٣].

وكان من آثار هذا الاضطراب الفكرى الذى غلب على العقلية الأوربية قبل أن تدخل المسيحية وتبعا للظروف التى عاشتها أوربا كان يوجد فيها مجموعة أديان قسمها بعضهم إلى ثمانية (دين أوجده الاجتهاد البشرى فقط ، دين قائم على الظنون ، دين قائم على الإلهام والشعور ، دين قائم على التحرى والتفكير، دين قائم على الترانيم والرقص ، دين قائم على سفك الدماء والاضطراب الروحى، دين قائم على الأصنام ، دين قائم على التحليق فى الفلسفة الغامضة

١- لمزيد من الاستفادة لشرحها أنظر (نشأة الدين) د. على سامى النشار ١٩٤٩م.

٢- (يا أهل الكتاب تعالوا ..) ص ٣٦ ، ٣٧ ، وللرد على هذه النظريات انظر (الدين) لعبدالله دراز.

٣- المرجع السابق ص ٤٤.

والفراسة) وآخر وهو « هارتمن » قسمها إلى خمسة أديان (دين التوحيد الكاذب كدين هنود أمريكا ، دين الفناء المطلق (البوذية) ، دين الدهرية وأشباههم (روما القديمة)، دين الزهد (البرهمية) ، دين الأوهام (الفرعونية)) ، وقسمها آخرون إلى أربعة أديان (عبادة الحيوانات المتعددة ، ودين المحبة والشياطين ، دين السحر والشعوذة ، دين عبادة الأشخاص) [١]. ولقد تأثرت العقلية الأوربية بهذه الأوهام قديما وحديثا مما أدى إلى اضطرابها حتى بعد دخول أوربا النصرانية وتأثر النصرانية - بعد تحريفها - للأديان الوضعية) [٢].

الأمر الذى يدفعنا إلى مظاهر هذا الاضطراب ، وأجملها فى النقاط التالية:

أولا : الصراع الفكرى بين اليهودية والنصرانية.

ثانيا : دخول " بولس " فى النصرانية .

ثالثا : دخول الامبراطور الرومانى " قسطنطين " فى النصرانية.

رابعا : تأثر النصرانية بالتصورات الوثنية والأساطير والموروثات القديمة للأمم السالفة عليها.

خامسا : سيطرة الكنيسة على الحياة الأوروبية.

سادسا : نظام الرهبنة الذى ابتدعه رجال الكهنوت.

سابعا : فساد رجال الدين (النصارى).

ثامنا : مسألة صكوك الغفران.

تاسعا : شدة النزاع بين البابوية والامبراطورية.

عاشرا : النزاع بين الكنيسة ورجال العلم.

ولى مع كل نقطة من هذه النقاط وقفة لتوضيحها ، فأقول وبالله التوفيق :

١- المرجع السابق ص ٤٤.

٢- أنظر (تأثر المسيحية بالأديان الوضعية) د. أحمد عجيبة رسالة العالمية مخطوط بكلية أصول الدين والدعوة بطنطا.

من يدرس طبيعة المجتمع الأوروبى سيلمس بجلاء أن الأمم الأوروبية كانت تتسكع فى ظلام الجهل المطبق ، والأمية الفاشية ، والحروب الدامية ، ولم ينبثق فيها فجر الحضارة والعلم ، ولم تظهر على مسرحها الأندلس الإسلامية لتؤدى رسالتها العلمية والمدنية ، ولم تصهرها الحوادث ، فضلا عن أنها كانت بمعزل عن قافلة الحضارة الإنسانية ، بعيدة عنها ، لا تعرف عن العالم ولا يعرف العالم المتمدن عنها إلا قليلا ، وكان فكرها الدينى بين ديانات وثنية شائبة موروثة ، وبين نصرانية وليدة ، ولم تكن بذات رسالة فى الدين ، ولا بصاحبة راية فى السياسة.

وعن هذه الحياة العلمية والدينية والاجتماعية ، يحدثنا هـ ج. « وليز » قائلا:

« لم تكن فى أوروبا - من القرن الخامس إلى القرن العاشر الميلادى - أمارات الوحدة والنظام وأطبق عليها ليل حالك ، وكان هذا الليل ظلاماً وسواداً، قد كانت همجية ذلك العهد أشد هولا وأفظع من همجية العهد القديم ، لأنها كانت أشبه بجثة حضارة كبيرة قد تعفنت ، وقد انطمست معالم هذه الحضارة ، وقضى عليها بالزوال » (١).

وهذا ما يؤكد أن الفكر الأوروبى قد عاش فى ظروف الهمجية المظلمة التى لم تتضح فيها أية معالم للحياة الاجتماعية والسياسية والدينية وغيرها ، وأن ثقافته الدينية كانت ثقافة موروثة عن الأمم السالفة ، ولم تكن عقيدة تلك الأمم السابقة واضحة لا فى الاعتقاد ولا فى الشرح ولا فى السلوك الإنسانى ، ومن ثم يظهر لنا - كما سبق بيانه - أن أولى مظاهر اضطراب الفكر الدينى فى الساحة الأوروبية الثقافة الدينية المتوارثة عن الأمم السالفة (اليونانية والرومانية والمصرية القديمة وغيرهم).

١- نقلا من (ماذا خسر العالم ...) ص ٤٤.

وتأتي الملابسات أو المظاهر التي أدت إلى هذا الاضطراب يكمن في النقطة التالية :

*** الصراع الفكري بين اليهود والنصارى:**

من المعلوم أن رسالات الوحي الإلهي ما جاءت إلا لتكون منهجا للحياة ، ومنها اليهودية فقد جاءت لتكون منهجاً لحياة بني اسرائيل ، كذلك جاءت النصرانية لتكون المنهج المعدل لبني إسرائيل ، ولكن اليهود لم يقبلوا رسالة السيد المسيح عليه السلام ، ولم يقبلوا منه التخفيف الذي جاءهم به من عند الله تعالى ، ومن ثم قاوموا المسيح عليه السلام وقاوموا دعوته ، ووقفوا ضد أتباعه وأشياعه ، وانتهى الأمر بهم إلى إغراء « بيلاطس » الحاكم الروماني على أرض الشام يومئذ بمحاولة قتل المسيح عليه السلام وصلبه ، لولا أن الله تعالى رفعه إليه في صورة لا تعلم كيفيتها ، وسارت الأمور بعد ذلك بين اليهود وأتباعهم ، والنصارى وأشياعهم سيرتها البائسة ، فبذرت بذور الحقد على اليهود في نفوس الذين صاروا نصارى ، كما غرست بذور الكره في نفوس اليهود على النصارى ، وانتهت بانفصال أتباع المسيح عليه السلام عن اليهود ، وانفصال النصرانية عن اليهودية ، ووقع الفصام النكد بينهما [1] .

ومن يقرأ التاريخ سيجد أن الصراع الفكري قد اشتد أواره بين أتباعهما ، فضلا عن السلوك العام بين أشياعهما ، ولو سجلنا تصرفات اليهود مع النصارى وردود أفعال النصارى عليهم لطال بنا المقام [2] ، غير أنني أسطر بعضها ، لكي يظهر للقارئ الكريم آثار هذا الصراع ، فلقد عادى اليهود النصارى ونشأ العداء ضد أم السيد المسيح ، وضد المسيح ، وضد أتباعه وضد الشعوب النصرانية في

١- (المستقبل لهذا الدين) سيد قطب ، ص ٢٥ ، ٢٦ ، بتصرف يسير.

٢- ولمزيد من الاستفادة انظر (اليهود) لأحمد شلبي ، (هداية الحيارى) لابن القيم .

كل زمان ومكان ، قذف ولعن ، واستغلال وابتزاز ، واثارة الفتن ، وحياكة الحيل والخيانات ، وإشعال نار الحروب ، واستغلال الأحوال والظروف ، وإشاعة الفسق والفجور ، وسفك الدماء ، وسرقة أقوات الشعوب والتطفل عليها، وكان من نتيجة هذا السلوك رد فعل عنيف ، وصراع ضار مرير ، بل صراع دموى رهيب من جانب النصارى .

وتمثل الصراع الذى دار بين النصارى واليهود فى أمرين [صراع فكرى انحرف فيه النصارى عن اليهود ، وبعدوا كل البعد عن عقيدة وشريعة وأخلاق اليهود ، وتناقضوا معهم وأدخلوا فى دينهم ماليس منه ، وحذفوا منه ما كان فيه، وما قال اليهود شيئا إلا حاول النصارى نقضه وتغييره وتبديله ، وصراع دموى أذاق فيه النصارى اليهود شتى ألوان الاضطهاد والتعذيب [1] اشتركت فيه كل الأمم النصرانية ، وكانت القسوة مع اليهود تعد مأثرة يمتدح النصارى بعضهم بعضا عليها].

وأسفر الصراع العقدى والفكرى والدموى بين كل من النصارى واليهود عن نتائج وآثار دمرت عقيدتهما وأفقدهما عن تحريف وتبديل وتغيير كل من الطائفتين عقيدته وشعائره وأخلاقه كيدا وتذليلا بالجانب الآخر ، حتى انسخلوا من عقائدهم ، وأصبح كل منهما لا دين له ، وتفرعت عنهما مذاهب وطوائف وسياسات هدامة مزقت الإنسانية شر ممزق ، مما أوضع الإنسانى الأوروبى - بصفة خاصة - فى اضطراب فكره الدينى ، وتشتت فى شتى مناحى حياته.

وثالث مظاهر الاضطراب الفكر الدينى الذى انتاب أوروبا يتمثل فى :

١- انظر (اليهودية) د. أحمد شلبى ، ص ٢٣٠ ، و (هداية الحيارى) ، (دائرة معارف القرن العشرين) ، محمد فريد وجدى ، جـ١ ، ص ٨٥ ، ٢٨٦.

* دخول « بولس » في النصرانية :

« بولس » لم ير المسيح عليه السلام وإنما دخل النصرانية من الوثنية الرومانية ، وكان من نصيبه أن يتولى نشر النصرانية في أوروبا مطعمة بما رسب في تصوراته من الوثنية الرومانية والفلسفة الإغريقية ، وكانت هذه كارثة على الفكر الديني النصراني منذ أيامها الأولى في أوروبا ، فوق ما لحق بها من تحريف في فترة الاضطهاد الأوربي فترة تناقل الروايات في ظروف لا تسمح بتمحيصها ولا بتواترها.

وكتب - كما يقول الأستاذ العقاد - بولس رسائله بعد ذلك - بعد القرن الأول الميلادي - وهي شاهد على امتزاج الأمثلة الدينية بصور الفلسفة ولاسيما فلسفة الحلول (١) ، وسائر ما أدخله في النصرانية من تعاليم ما أنزل الله بها من سلطان ، مما أثار اضطرابا فكريا ودينيا في ساحة البيئة الأوروبية.

هذا ولم تكن النصرانية - كما يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي - في يوم من الأيام من التفصيل والوضوح ومعالجة قضايا الإنسان بحيث تقوم عليها حضارة إنسانية أو تسير في ضوئها دولة ، ولكن فيها آثار من تعاليم السيد المسيح - عليه السلام - وعليها مسحة من دين التوحيد ، حتى جاء « بولس » فطمس نورها وطعمها بخرافات الجاهلية التي انتقل منها ، والوثنية التي نشأ عليها ، حتى أصبحت النصرانية مزيجا من الخرافات اليونانية والوثنية الرومانية والأفلاطونية المصرية والرهبانية اضمحلت في جنبها تعاليم المسيح كما تتلاشى القطرة في اليم ، وعادت نسيجا خشبيا من معتقدات وتقاليد لا تغذي الروح ولا تمد العقل ولا تشعل العاطفة ، ولا تحل معضلات الحياة ولا تنير السبيل ، بل أصبحت بزيادات المحرفين وتأويل الجاهلين تحول بين الإنسان والعلم والفكر وأصبحت على تعاقب العصور ديانة وثنية » (٢) ، مضطربة ، فقدت النصرانية

١- (الدين) للأستاذ عباس محمود العقاد ، ص ١٦٩.

٢- (ماذا خسر العالم ..) ص ٣٨.

-بدخول «بولس» الوثنى فيها - ربانيتها ، وإنسانيتها وروحها ، ولو بعث المسيح - عليه السلام - لأنكر على الغربى دعوته ، ومعتقده الدينى ، وأصبحت النصرانية وما طرأ عليها من فكر بشرى وضعى لا تحمل للعالم رسالة ، ولا للأمم دعوة ، وأفلست فى معنوياتها ، ونضب معين حياتها ، ولا تملك مشرعا صافيا من الدين الإلهى ، ولا نظاما ثابتا من الحكم البشرى ، مما أوقع اضطرابا فكريا ودينيا واجتماعيا فى ساحة أوروبا .

ورابع مظاهر هذا الاضطراب يتمثل فى :

* دخول الامبراطور الرومانى «قسطنطين» فى النصرانية :

لقد كانت الكارثة العظمى - كما يقول المرحوم سيد قطب [1] - فى اضطراب الفكر الدينى فى أوربا ، كانت فى الحدث الذى تم بعد ذلك فى القرن الرابع الميلادى تغير الأمر فى دخول الامبراطور الرومانى قسطنطين النصرانية وكان دخوله فى ظاهره انتصار النصرانية وطريقها على امبراطوريته ، والدين الذى فرضه لم يكن دين المسيح وإنما دين الكنيسة الوضعى .

يصف «درابر» الأمريكى فى كتابه (الدين والعلم) هذا الحادث وآثاره النكدة يقول :

(دخلت الوثنية والشرك فى النصرانية بتأثير المنافقين ، الذين تقلدوا وظائف خطيرة ، ومناصب عالية فى الدولة الرومية ، بتظاهرهم بالنصرانية ولم يكونوا يحفلون بأمر الدين ، ولم يخلصوا له يوما من الأيام ، وكذلك كان «قسطنطين» فقد مضى عمره فى الظلم والفجور ، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلا فى آخر عمره سنة ٣٣٧م.

١- (المستقبل لهذا الدين) ص ٢٨ ، ٢٩.

إن الجماعة النصرانية وإن كانت قد بلغت من القوة بحيث ولت «قسطنطين» الملك ، ولكنها لم تتمكن من أن تقطع دابر الوثنية ، وتقتلع جرثومتها ، وكانت نتيجة كفاحها ان اختلطت مبادئها ، ونشأ من ذلك دين جديد ، تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء.

إن هذا الامبراطور الذى كان عبدا للدنيا ، والذى لم تكن عقائده الدينية تساوى شيئا ، رأى لمصلحته الشخصية ، ولمصلحة الحزبين المتنافسين –النصرانى والوثنى – أن يوحدهما ويؤلف بينهما ، حتى إن النصارى الراسخين لم ينكروا عليه خطته ، ولعلهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة – النصرانية المطعمة بالوثنية – ستزدهر إذا طعمت ولقحت بالعقائد الوثنية القديمة [1] ، وسيخلص الدين النصرانى عاقبة الأمر من أدناس الوثنية وأرجاسها) [2].

ولكن هذه الديانة الوضعية الجديدة لم تتخلص – بعد ذلك – قط من أدناس الوثنية وأرجاسها – كما أمل واضعوا الفكر الدينى فى النصرانية – فقد ظلت تتلبس بهذه الأساطير والتصورات الاعتقادية الوثنية ، ثم زادت الطينة بلة ، فأصبحت تتلبس كذلك بالخلافات السياسية والعنصرية ، وأصبحت هذه العقيدة الوضعية تغير وتنقح لتحقيق مآرب سياسية.

وفى هذا الشأن يحدثنا « ألفرد بتلر » فى كتابه : « فتح العرب لمصر ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد » قائلا : « إن ذينك القرنين – الخامس والسادس الميلادين – كانا عهد نضال متصل بين المصريين والرومانيين ، نضال يذكيه اختلاف فى الجنس ، واختلاف فى الدين ، وكان اختلاف الدين أشد من اختلاف الجنس ، إذا كانت علة العلل فى ذلك الوقت ، تلك العداوة بين الملكانية

١- انظر (تأثر المسيحية بالأديان الوضعية) رسالة دكتوراه ، د. أحمد عجيبة مخطوط بمكتبة أصول الدين بطنطا.

٢- نقلا من (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) ، ص ١٨٥ ، ١٨٦.

والمونوفيسية وكانت الطائفة الأولى - كما يدل عليها اسمها - حزب مذهب الدولة الامبراطورية ، وحزب الملك والبلاد ، وكانت تعتقد العقيدة الموروثة وهى ازدواج طبيعة المسيح ، على حين أن الطائفة الأخرى وهى حزب القبط المنوفيسين - أهل مصر - كانت تستبشع تلك العقيدة وتستفظعها ، وتحاربها حربا عنيفة ، فى حماسة هوجاء ، يصعب علينا أن نتصورها ، أو نعرف كنهها فى قوم يعقلون، بل يؤمنون بالإنجيل . [1]

كما يصور ذلك - أيضا - ت.و. أرنولد فى كتاب (الدعوة إلى الإسلام) مبينا الخلاف الطائفى السياسى العنصرى وآثاره فى الابتداعات والإضافات والتعديلات فى الفكر الدينى النصرانى فيقول :

« لقد أفلح «جستنيان» قبل الفتح الإسلامى بمئة عام فى أن يكسب الامبراطورية الرومانية مظهرا من مظاهر الوحدة ، ولكن سرعان ما تصدعت بعد موته ، وأصبحت فى حاجة ماسة إلى شعور قوى مشترك ، يربط الولايات وحاضر الدولة ، أما « هرقل » فقد بذل جهودا لم تصادف نجاحا كاملا فى إعادة ربط الشام بالحكومة المركزية ، ولكن ما اتخذه من وسائل عامة فى سبيل التوفيق قد أدى إلى زيادة الانقسام بدلا من القضاء عليه ، ولم يكن ثمة ما يقوم مقام الشعور بالقومية سوى العواطف الدينية ، فحاول بتفسيره العقيدة تفسيرا يستعين به على تهدئة النفوس ، أن يقف ما يمكن أن يشجر بعد ذلك بين الطوائف المتناحرة من خصومات ، وأن يوحد بين الخارجين على الدين وبين الكنائس المتناحرة واحتدم الجدل قرابة قرنين من الزمان بين طائفة الأرثوذكس وبين اليعاقبة ... لكن هرقل قد لقى المصير الذى انتهى إليه كثيرون جدا ممن كانوا يأملون أن يقيموا دعائم السلام ، ذلك بأن الجدل لم يحتدم مرة أخرى كأعنف مايكون فحسب ، بل إن هرقل نفسه قد وصم بالإلحاد ، وجر على نفسه سخط الطائفتين

١- نقلا من (المستقبل لهذا الدين) ص ٣٠.

على السواء » [١]. مما يؤكد أن جهود هذا الامبراطور لتفسير الدين لم تكن من أجل الدين ولكنها كانت محاولة سياسية بحته دفعه إليها ضعف القومية التى تربط بين أجزاء الامبراطورية ، فأراد أن يتخذ من الدين صنما بدلا من صنم القومية.

هذه الملابسات والمظاهر السيئة التى عج بها الفكر الدينى فى البيئة النصرانية فى بدء نشأتها أولا ، ثم عند انتصارها السياسى على ذلك النحو ثانيا ، ثم ما تلا ذلك الانتصار من خلافات سياسية وعنصرية وتحريفات وتعديلات فى العقيدة بسببها ثالث كل أولئك قد ملأ التصور الاعتقادى فيها بعناصر غريبة كل الغرابة على طبيعتها ، وعلى طبيعة الدين الإلهى كله ، ومن ثم لم يعد التصور النصرانى - كما صنعته التحريفات المتوالية أولا ثم كما صاغته المجامع المقدسة العامة والخاصة أخيراً [٢] - قادرا على أن يعطى التفسير الإلهى للوجود وحقيقته ، وحقيقة صلته بخالقه ، وحقيقة هذا الخالق وصفاته ، وحقيقة الوجود الإنسانى وغايته وطريقة هذه المقومات التى لابد أن تصح كى يصح النظام الاجتماعى الذى ينبثق منها ، ويقوم بعد ذلك عليها. [٣]

ولم يقف الأمر عند فساد التصور الاعتقادى على هذا النحو ، بل مضت الملابسات النكدة فى طريقها خطوات عاثرة ، تظهر وتؤكد اضطراب الفكر الدينى فى الساحة الأوروبية ويتمثل هذا - أيضا - فى :

*** سيطرة الكنيسة على المجتمع الأوروبى:**

لقد سيطرت الكنيسة - فى العصور الوسطى - وتحكمت بشكل رئيسى وأساسى فى سير الأحداث فى البلاد الأوروبية ، وكان لها سلطانها ونفوذها

١- المرجع المذكور ص ٥٢ - ٥٣ من الترجمة العربية.

٢- يراجع بالتفصيل لمزيد من الافادة (محاضرات فى النصرانية) محمد أبو زهرة.

٣- (المستقبل لهذا الدين) ص ٣٢ ، ٣٣ ، بتصرف يسير.

وإما الاضطهاد والتعذيب والحرمان واللعن [1].

مما اضطر الإنسان الأوروبي أن يؤثر الخنوع والخضوع لما تقرره الكنيسة، واتقى أسباب النزاع بانصياعه لسيطرة الكنيسة واستبدادها، ولذلك بقيت أوروبا في ظل العصور الوسطى تتسكع في دياجير الجهل والخرافة والانحطاط[2]. وخير ما يؤكد ويعضد هذه النظرة المظلمة التي سادت الفكر الأوروبي، والعقلية الغربية في العصور الوسطى ما سجله الغربيون أنفسهم ليدرك - القارئ الكريم - مدى التأخر العلمي والفكري الذي كانت عليه بلاد الغرب [3].

ومما يؤكد أن أوروبا لم تعرف دين الله تعالى المنزل على حقيقته الإلهية، وإنما عرفت صورة محرفة من الموروثات الفكرية الوضعية، « أن الكنيسة قد أجرمت في حق الله تعالى جريمتين مزدوجتين :

- الأولى : أنها عزفت عن تطبيق شرع الله واجبها الأول والمبرر الأكبر لوجودها إن كان لوجودها مبرر).
- والثانية : أنها استخدمت سلطانها الذي حاربت من أجل الحصول عليه وأراقت الدماء في إخضاع الناس جميعا (ملوكهم ورعاعهم) لهواها وجبروتها هي، فجعلت من رجالها أربابا من دون الله ..

ومن هنا فالجرائم التي ارتكبتها الكنيسة جرائم بشعة متراكب بعضها على بعض من أي زاوية نظرت إليها :

- فمن ناحية الدين المنزل شوهته وحرفته بفصل العقيدة عن الشريعة وتقديمه للناس عقيدة صرفا بلا تشريع أي مسخا مشوها لا يمثل دين الله الحق، ثم

1- انظر (قصة الصراع بين الدين والفلسفة) د. توفيق الطويل، ص ٩٥.

2- (ماذا خسر العالم ...)، ص ١٩٢.

3- انظر (أوروبا العصور الوسطى) جـ٢، ص ٤١٢.